الصلات العلمية بين حواضر الغرب الإسلامي خلال تاريخي: الوسيط والحديث
(قراءة في تفاعل حواضر شنقيط مع تلك الصلات)

د- تربه بباي عمار
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة نواكشوط

تسعى هذه الورقة إلى تقديم صورة نحاول أن تكون جديدة أو على الأقل غير تقليدية، بمعنى أننا سنتجنب التكرار والاجترار نظرا لكثرة اشتغال معظم باحثي هذه الفترة في منطقة الدراسة بتلك الصلات، وذلك التفاعل الذي ساد منذ أكثر من ألف سنة بين مدن وحواضر تقع في منطقة ما كان يسمى إبان وبعد الفتح الإسلامي بمنطقة الغرب الإسلامي، ونقصد بذلك المغرب العربي في التاريخ المعاصر وتاريخ الزمن الراهن، إن الاشتغال بهذا الموضوع يحيل الباحث إلى كم كبير من المصادر والمراجع والدراسات، وما كبته كبار المؤرخين عن هذه الفترة التي كانت فترة تأسيسية ومفصلية لمجتمعات الغرب الإسلامي بمختلف سياقاتها وتوجهاتها.

سنشتغل في هذه الورقة على تقديم قراءة وتحليل لذلك التفاعل، الذي وقع بشكل حيوي باستمرار رغم بطئه ورتابته أحيانا، حتى وصفه بعض الباحثين بأنه كان بطيئا لكنه كان عميقا، شهد المجتمع خلاله تحولات كبرى وتبدلت انساق معرفية وسياقات سياسية..

وانطلاقا من هذا فإننا سنتناول في هذه الدراسة تأثير عدة مدن تقع حاليا في بعض بلدان المغرب العربي، على البلاد الموريتانية التي كانت يومئذ صحراء الملثمين أو بلاد شنقيط حسب السياق السياسي والثقافي، ذلك التأثير الذي انساب بشكل سلمي عبر الطرق البرية، كما نضيف عاصمة الغرب السوداني وهي مدينة تمبكتو الواقعة حاليا في دولة مالي، والتي كانت يومئذ إحدى أهم حواضن النشاط العلمي لفقهاء المالكية بنسخة دولة المرابطين بعد سقوطها وظهور الموحدين، حين كانت هي عاصمة الغرب السوداني وهو جزء من الغرب الإسلامي، سنعتمد الترتيب الزمني في تقديمنا لهذه المدن والحواضر، لما لذلك من ترتيب منهجي لتوضيح ما نسعى من ورائه في صورة التفاعل الذي اخترنا أن نطلق عليه "التفاعل" لأنه في نظرنا المصطلح الأكثر موضوعية في الحديث عن تلك الصلات، فما وقع خلال أكثر من ألف من السنين كان تفاعلا، خاصة ونحن نتحدث عن عدة مدن في بلاد شنقيط استقبلت وتفاعلت عبر قرون عديدة مع روافد عليمة وثقافية قادمة عبر الطرق البرية من حواضر علمية وعواصم سياسية بالغرب الإسلامي.

وحسبنا من ذلك التفاعل أنه أنتج انسجاما مذهبيا عرفته كافة مدن وحواضر المنطقة، اعتمادا على منهج علمي موحد قوامه ثلاثية: المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية والتصوف الجنيدي، ولكي لا يذهب بنا حماس هذه الوحدة بعيدا يجب أن لا نغمض الطرف عن حقيقة تاريخية مفادها أن مذهبي الخوارج والشيعة الإسماعيلية كان لهما حضور لافت في القرون الهجرية الأولى: الثاني والثالث والرابع إبان تشكل مغرب العالم الإسلامي، سنتوقف عند تلك التجربة الخارجة من تحت عباءة الفتح الإسلامي، وتدفق الموجات البشرية القادمة من المشرق العربي،في ظل تعدد المشارب والتنافس الطائفي الذي أخذت منه منطقة الغرب الإسلامي حظا كبيرا، وكان له بالغ الأثر في توسع رقعة الإسلام واللغة العربية، وإن كان ذلك تحت طموح مذاهب غير المذهب السني، الذي ستكون له الغلبة المطلقة في القرون التي تلت ذلك، نظرا لديمومة التفاعل بين المدن والحواضر التي اخترنا موضوع الدراسة فيها، كما اخترنا التفاعل دلالة على تنمية الوحدة المذهبية في منهج المالكية والأشعرية والتصوف الجنيدي، وذلك ما جعلنا نذكر بشيء من التفصيل مدن في بلاد شنقيط، وأخرى في بلدان مغاربية، وخصصنا الحديث عن حواضن أهل السنة لأنها الأكثر حيوية وتأثيرا وديمومة، ذلك ما سيتجلى في هذه الورقة.

كان للحركات الإصلاحية ذات الهدف السياسي كبير الأثر على تلك الوحدة أو على الأصح كان لها الدور الحاسم في التعجيل بها، جاء ذلك مع دولتي: المرابطين والموحدين؛ مما عجّل بالقضاء مطلق على المذاهب الأخرى؛ وسيطرة شبه تامة لأهل السنة في جانبهم الفقهي والعقدي والصوفي.

كانت نسخة المالكية الأصلية قد انطلقت من مدينة القيروان ووصلت مدينتي: كوبي صالح وأوداغست، تلك المدينتين التين نعّرفهما بالجيل الأول من مدن بلاد شنقيط. وكانت تلك النسخة قد تطورت في مرحلة ثانية وأدخلت موطأ الإمام مالك في عمود المنهج العلمي عند علماء مدينة فاس، لتنتقل تلك النسخة إلى مدينة تمبكتو بالغرب السوداني، ومنها انتقلت مباشرة إلى حواضر الجيل الثاني من حواضر بلاد شنقيط، ونقصد بذلك: ولاتة وتيشيت ووادان وشنقيط، حيث استقبلت هذه الحواضر تلك النسخة وتفاعلت معها فهما ودراية وتأليفا.

هذا عن النسخة المالكية القادمة من القيروان التي وصلت مباشرة مع مجموعة من التجار إلى أوداغست (عاصمة صنهاجة الأولى) وكوبي صالح (عصمة مملكة غانا) وفي مرحلة ثانية انطلقت النسخة الثانية من المالكية أو علماء الجيل الثاني والثالث من مدينة فاس مرورا بتمبكتو وصولا إلى ولاتة وتيشيت وودان وشنقيط، وسنلحق الحديث عن المالكية حديثا عن الأشعرية التي وصلتنا في النصف الأخير من القرن الهجري الحادي عشر السابع عشر ميلادي، قادمة من

مدينة تلمسان بالشمال الغربي الجزائري، وترفدنا مدينة تـوات بـالجنوب الجزائـري أيضـا بالتصوف السني مشكلة بذلك مرحلة اكتمال المنهج ووصول بلاد شنقيط (موريتانيا) مرحلة النضـج المعرفي والاستقرار المذهبي.

وانطلاقا من هذا لن نستطيع الحديث عن الجانب العلمي وتفاعلاتـه الإقليميـة إلا باسـتهلال الموضوع بتلك الحملات ذات الطابع العسكري، أو تلك التي تلتها وكانت أكثـر منهـا نتيجـة ووضوحا واستمرارا.. حيث كان طابعها سلميا، تولى التجار والدعاة مهمة توصيله عبر مسالك برية وطرق تجارية..

هذا ما سنتناوله في هذا البحث مع شيء من الإيجاز نرجو أن لا يكون مخلا وذلك من خلال الخطة المنهجية التالية:

المحور الأول: وصول الإسلام بحمولته المعرفية

نقدم خلاله حديثا عاما عن ظروف دخول الإسلام نشأة وتطورا، وعن دور حفـر الآبـار فـي حيوية الحركة والتفاعل؛ مما سيكون له بالغ الأثر في وجود جاليات إسلامية قد تكون سببا فـي رفد الجيل الأول من المدن بالإسلام السني.

المحور الثاني: الجيل الأول من الحواضر وتأثير رافد القيروان

نتحدث في هذا المحور عن روافد: القيروان وفاس وتمبكتو والأثر الواضح على مدينتي: كوبي صالح وأوداغست

المحور الثالث: نشأة وتطور الجيل الثاني من الحواضر

سيتم الحديث عن مستوى التطور المعرفي في بلاد شنقيط(موريتانيا) حـد وصـولهم للاكتفـاء الذاتي، تفاعلا مع مراكش وتلمسان وتوات ومكناس.

الخاتمة: سنختتم الحديث عن هذا الموضوع المختص بالتاريخ الثقافي لمنطقة المغرب العربـي حاليا الغرب الإسلامي سابقا بخلاصات نرى أنها قد تحصلت عندنا في جولة بحثية تنقيبية فـي رحاب مدن وحواضر كان لها كبير الأثر في تشكيل وحدة علمية ومذهبية، جاءت تباعا حسـب السياق الزمني، وذلك في تحليل السياق الثقافي.

المحور الأول:

وصول الإسلام بحمولته المعرفية إلى بلاد شنقيط(موريتانيا) لحظة تأسيس الهوية المعرفية.

إن أي حديث عن تأثير المدن العلمية ذات الطابع الإسلامي التي ظهرت فـي منطقـة الغـرب الإسلامي إبان الفتح أو بعده لن يقدم صورة مكتملة منهجيا إلا إذا استعرضنا الآلية التي تمت بها حركية النقل بين المدن، وأسهمت بشكل مباشر في التفاعل، وهي حفر تلك الآبار، التي كان لها

كبير الأثر على سلمية التواصل والتفاعل، هكذا يجب أن نستهل الحديث عن الصلات العلمية بين حواضر الغرب الإسلامي، بمحاولتنا لرسم ملامح البدايات التأسيسية للهوية العربية والإسلامية في البلاد الشنقيطية(موريتانيا) ويأتي ذلك عبر رحلة طويلة، نكاد نلتمس خيطها الأول مع دخول الإسلام في مراحله الأولى، التي نتج عنها وجود جالية إسلامية ذات حضور معنوي كبير، في بلاط ملك غانا وعاصمتها كوبي صالح، وكذلك تأسيس مدينة أوداغست نهاية النصف الأول من القرن الهجري الثاني، وتلتها بعد ذلك مدن أسسها أصحابها على مشروع ديني مع دوافع سياسية وأخرى أمنية؛ مما كان له بالغ الأثر في احتضان الإسلام في طوره الأول، ونسمي تلك الحواضر بالجيل الأول من المدن.

وبما أن دراسة التاريخ الثقافي، ورصد الحركة العلمية والفقهية، واكتمال سيرها بازدواجية التصوف السني بنسخته الجنيدية والعقيدة الأشعرية بنسختها الباقلانية، كلها أمور تحتاج في مجمل منهجها إلى النظر في السياق التاريخي، والمحطات التحولية في مسيرة المجتمع الشنقيطي، الذي أصبح اليوم هو المجتمع الموريتاني بانسجامه المذهبي، واكتمال عناصر منهجه التعليمي، عبر محطتي: المسجد أولا والمحظرة ثانيا.

وحسبنا من قيمة تلك الحملات العسكرية المفترضة أنها تركت أثرا قاوم وحشة الصحراء وخطورتها بحفر تلك الآبار،وما خلفته من أثر في اعتناق بعض قبائل الصحراء للإسلام، حيث أصبحت تلك الآبار تجمعا بشريا وقطبا تنمويا يستقطب الدعاة والتجار؛ مما شكل فيما بعد المدن والحواضر التي احتضنت الإسلام في طوره الأول، وبعد التفاعل مع مدن أخرى أصبحت وعاء للمالكية، ونخص بالذكر تلك الآبار التي حفرها الأمير الفهري والتي كان دورها محوريا وجوهريا.."بدأت ملامح إستراتيجية عربية جديدة تتحدد، وكان هدفها هو الوصول إلى الصحراء بالطرق السلمية لنشر الإسلام والمشاركة في المبادلات التجارية، وذلك عندما قام عبد الرحمن بن حبيب بحفر مجموعة من الآبار على طول الطريق الذي كان يربط بين تامدلت وأوداغست لتسهيل نقل الدعاة والتجار من دون أن يتعرضوا لخطر الموت عطشا، ويعتقد أحد الباحثين أن هذه الخطوة التي اتبعها عبد الرحمن بن حبيب ابتداء من سنة745م كانت أكثر نجاحا من سابقاتها حيث نجحت في تحقيق الهدف الذي كانت تسعى إليه"[1].

---

[1]– الناني بن الحسين، صحراء الملثمين، وعلاقاتها بشمال وغرب إفريقيا، من منتصف القرن:2 هـ8م إلى نهاية القرن 5هـ 11م، بدون تاريخ نشر ولا ذكر المطبعة، ص:65.

وسابقاتها المقصود بها –أوما يتبادر للذهن–الحملات العسكرية، وهنا نجد الأستاذ الناني بن الحسين يؤكد على أن ما حققته الحملات السلمية هو الذي كانت تطمح له سابقاتها من الحملات العسكرية، كما يؤكد الدكتور الناني أيضا في كتابه القيم"صحراء الملثمين" أن تلك الآبار كانت سببا في رفد مدينة أوداغست بجالية عربية كبيرة كان وجودها واستقرارها سببا مباشرا في انتشار الإسلام[1]..

ونجد عند المؤرخين الذين كتبوا عن مدينة أوداغست قولهم إنها كانت بعد حفر الآبار، وأن الآبار هم الذين أسهموا في تأسيس المدينة وتحفيز الحلف الأول من صنهاجة على تأسيسها، بعدما أمنت الآبار الطريق من مهالك العطش، فكان تأسيس الآبار عشرينات القرن الهجري الثاني، ومن المعلوم أن فترة حكم عبد الرحمن للقيروان من سنة127ه حتى 137 وكان تأسيس أوداغست سنة 140 هجرية. ونستنتج في هذا السياق أن تأسيس المدينة جاء نتيجة لحفر الآبار، وكذلك وصول الجالية لعاصمة مملكة غانا كان أيضا نتيجة لتلك الآبار التي أصبحت الشريان الذي غذى الحركة الدعوية والعلمية، وعزز قيمة التواصل بين الحواضر..

في السياق نفسه نجد البكري يحدد الطريق الرابط بين تامدلت وأوداغست ويقدم وصفا للآبار التي ينسبها لعبد الرحمن بن حبيب، ويصف بعض التضاريس التي تفصل بين المدينتين: تامدلت وأوداغست، وفي وصفه للمسافة الفاصلة بين بعض نقاط المياه يحددها أحيانا بثلاثة أيام وأحيانا أخرى بعشرة، واصفا طول الآبار بثلاث قامات وأحيانا أكثر وأحيانا أقل، ويقول حرفيا:"..ثم إلى أودغست وهي مدينة كبيرة آهلة رملية يطل عليها جبل كبير موت لا ينبت شيئا بها جامع ومساجد كثيرة آهلة في جميعها المعلمون للقرآن وحولها بساتين النخل ويزرع فيها القمح.."[2].

جملة قضايا وإشكاليات استدعى السياق المنهجي استعراضها في عجالة تمهيدا للحديث عن طبيعة تفاعل المدن والحواضر في تشكيل سياق مشترك، حيث كانت عاصمة مملكة غانا(كومبي صالح) أول الحواضر التي احتضنت جالية من التجار المسلمين، وقد أسهم وجودهم في حضور المظاهر الإسلامية كبناء المساجد.

---

[1]– الناني ولد الحسين، صحراء الملثمين، سيق ذكره، ص:83.

[2]– أبو عبيد عبد الله البكري، المسالك والممالك، ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، ص: 156.

المحور الثاني: الجيل الأول من الحواضر وتأثير رافد القيروان

1- كومبي صالح

تأسست هذه المدينة التي تبعد أطلالها حاليا 60 كلم من مدينة تمبدغة من ولاية الحوض الشرقي حاليا، وكانت هي العاصمة السياسية لمملكة غانا، وكانت المدينة محطة هامة وحيوية لانطلاق القوافل نحو إفريقيا جنوب الصحراء، وقد أهلها موقعها الجغرافي لاستقبال التجار العرب والمسلمين والدعاة، فكانت المدينة تضم جالية من المسلمين شيدوا المساجد ونشروا الإسلام بطريقة هادئة.. وكان تأسيس المدينة في حدود القرن الميلادي الثاني أو الثالث أي حدود ألف سنة من تأسيس الجيل الثاني من الحواضر وفي ظروف مختلفة جدا سياسيا واجتماعيا..

"يعود تاريخ المدينة إلى القرن الثالث الميلادي عندما سيطرت قبائل المائدية الوثنية على طرق القوافل التجارية بين كمبي صالح وأوداغست وتمبكتو وخلال القرن السابع الميلادي برزت إمبراطورية غانا كقوة عظمى مهيمنة في المنطقة متخذة من مدينة كمبي صالح عاصمة لها، ومع حلول القرن الحادي عشر الميلادي وصل عدد سكان مدينة كمبي صالح 30 ألف نسمة مجسدة أكبر مدينة على الإطلاق في القارة الإفريقية"[1].

تعتبر مملكة غانا من أقدم الإمبراطوريات بالسودان الغربي، امتازت بأنها كانت ومنذ دخول الفاتحين العرب لمنطقة الغرب الإسلامي حيث أصبحت محط أنظار العرب بسبب غناها بالذهب، وبعد فك العزلة عن الصحراء بسبب تلك الآبار الآنفة الذكر انتقلت مجموعات كبيرة من التجار للاستقرار بها، وكونوا جالية عربية مسلمة معظمها قادمة من القيروان[2].

"تتكون المدينة من مركزين، المركز الشمالي حيث عرف بمساجده الإثنى عشر بينما عرف المركز الجنوبي بالقلعة حيث كان القصر الملكي محاطا بالتجمعات السكنية، أو كما قيل كانت تنقسم إلى حيين: حي صالح للمسلمين وحي كومبي لغير المسلمين. بنتها قبائل صنهاجة البربرية، وفي منتصف القرن الخامس هجري زحفت جيوش دولة المرابطين على المدينة ملحقة ضررا جسيما بالمدينة وبسجلاتها الموثقة وحل المرابطيون محل السكان الأصليين، في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي استخدم ملك الصوص «سمارى كانته» المدينة ثكنة لجيوشه ومنطلق لعملياته العسكرية، بعدها صارت المدينة القديمة مهجورة حتى أعيد اكتشافها سنة 1913م

---

[1]- تربه بنت عمار، الحركة الفقهية والمذهبية في الغرب الإسلامي، من القرن:2هـ/ 8م /حتى 13هـ/19م (قراءة جديدة لسيطرة المالكية وإسهام الشناقطة في طورها الأخير)، ط: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، الطبعة الأولى، 2025، ص :211

[2]- البكري، المسالك والممالك، سبق ذكره، ص: 234.

كمركز للحفريات وقبلة لعلماء الآثار من جميع أصقاع المعمورة، وتوجد اليوم في نفس المكـــان تقريبا مدينة جديدة بنفس الاسم وهي عاصمة لبلدية كمبي صالح إحدى البلديات الخمسة التابعـــة لمقاطعة تمبدغة"[1].

وفي هذه الفترة بالذات أقصد فترة دخول الإسلام السني لعاصمة مملكة غانـــا، كانـــت مدينـــة القيروان قد عرفت وجود تلامذة الإمام مالك المباشرين، مثل علي بن زيادة (ت183هـــــ)وأسد بن الفرات (ت213هـــــ) وعبد السلام بن سحنون(ت 240هـــــ) وشكل هؤلاء الأئمة نقلة نوعية في إدخال المذهب المالكي لمنطقة الغرب الإسلامي بشكل عام ومدينة القيروان بشكل خـــاص، فكانت هذه النسخة الأصلية والمباشرة من المالكية هي التي وصلت مع تجارة القوافـــل لمدينـــة كوبي صالح، حيث امتاز الإسلام السني المالكي بمستوى من القبول عند نخبة العاصمة الغانيـــة كالوزراء ورجال الدولة؛ مما شكل استثناء، ويرجع بعض الباحثين ذلك إلـــى كـــون مجموعـــة التجار كانت ذات صلة مع رجال الدولة، وكبار التجار فنقلوا لهم الإســـلام بحمولتـــه المذهبيـــة والفقهية واللغوية.. فكانت النتيجة وجود عدد من المساجد في بعض أحياء المدينة ذات الكثافـــة السكانية والازدهار الاقتصادي...!

وحسبنا من ذلك الدور الذي قامت به كومبي صالح أن مدينة أوداغست التي تأسست بعـــدها ورغم خصومتها معها فإن المناخ العام الذي كانت عاصمة غانا تمثّل جزأً منه قد ســـاعد علـــى تأسيس مدينة إسلامية، مع دولة صنهاجة الأولى وعاصمتها أوادغست، حيث تأسست فعليا على الإسلام السني، رغم ما اتصف به إسلامهم من سطحية وبساطة إلا أنه نجح في استمرار التفاعل مع مدينة القيروان، وما تحمله القوافل القادمة منها من زاد معرفي وانسجام مذهبي.

2- **أوداغست**

يعود تأسيس هذه المدينة إلى قيام الحلف الصنهاجي الأول، حيث كانت أوداغســـت مـــن أهـــم نتائجه، حيث تأسست هذه المدينة لتكون عاصمة سياسية وموقعا اقتصاديا وعسكريا لمجموعـــة قبائل صنهاجة ذات الكثافة السكانية الكبرى والقوة العسكرية العظيمة..[2]

ويرى بعض الباحثين أن عاصمة دولة صنهاجة الأولى لم تعرف ازدهارا علميا كبيرا، وإنما كان حظها من العلوم في حدود المبادئ الإسلامية، وأنها رغم وجود جالية ســـنية قادمـــة فـــي

---

[1]– تربه بنت عمار، الحركة الفقهية والمذهبية، سبق ذكره، ص217.

[2]– تربه بنت عمار، مقال: القافلة والحاضرة: ثنائية أسست لثقافة شنقيطية عالمة، مجلة الموكب، العدد:63، يوليو:2024.

معظمها من مدينة القيروان إلا أن ذلك لم يشفع لها في ازدهار معرفي، وإنها كانت ذات طـــابع سياسي وعسكري واقتصادي بالدرجة الأولى.

وعندما قام الحلف الصنهاجي الأول في حدود 140 هجرية ضم ذلــك الحلــف معظــم القبائــل الصنهاجية الموجودة في بلاد شنقيط (موريتانيا حاليا) وكان من أعظم تلك القبائل لمتونة وكداله ومسوفة وقد اعتنقوا الإسلام، واختاروا موقعا استراتيجيا هاما يسد المنافذ عــن مملكــة غانــا، ويربط المدينة بالقوافل التجارية القادمة من مدن وحواضر شمال وغرب إفريقيا، ظلــت هــذه المدينة عامرة ومزدهرة، وظل ملوكها يواصلون نشر الإسلام والتوسع السياســي والاقتصــادي حتى بداية القرن الهجري الرابع[1].

ورغم ذلك فإن مدينة أوداغست تأسست إسلامية سنية، وإن وجود مجموعة فقهاء بها كان أمــرا طبيعيا، وحتى بعد سقوط أوداغست مطلع القرن الهجري الرابع 306. بقيت مجموعــات مــن الفقهاء مرتبطة بالمجتمع الصنهاجي بدليل أن البكري ذكر أن فقيها قيروانيــا كــان بمضــارب صنهاجة وقد اعترض على بعض فتاوى عبد الله بن ياسين إبان قيام حركــة المــرابطين فــي طورها التصحيحي، الذي كان فيه ابن ياسين صارما في تطبيق ما يراه شرع الله، ويرى أن صنهاجة أهل اللثام قد ضيعوه وتخلوا عن تعاليم الشريعة الإسلامية[2].

وبعد قيام حركة المرابطين في بحر القرن الهجري الخامس سيسطع نجم مدينة مراكش بعــدما أسسها يوسف بن تاشفين سنة 454هـــ، (ت500هـــ/ 1106م) وكان ابن تاشفين أعظم ملــوك الدولة المرابطية، في عملية انتقال بثقل الدولة نحو الشمال، وستشهد دولة المرابطين عناية فائقة بفقهاء المالكية، حتى أن علي بن يوسف (ت 537هـــ/ 1143م)كان لا يُعيّن واليا إلا عيّن معــه فقيها وجعل أمر الوالي تابع لأمر الفقيه[3]. استفحل أمر الفقهاء وآلت لهم السلطة التنفيذية وأخص بالذكر فقهاء المالكية.

وقبل ختام الحديث عن الجيل الأول من مدن بلاد شنقيط(موريتانيا) وتفاعلها مع روافد مــدن أخرى بمنقطة الغرب الإسلامي، يجب أن نذكر لمدينتي: آبير وآزوكي دورهما في نشر الإسلام واللغة العربية في المنطقة، وإن كان الخلاف المذهبي بينهما جليا فإن ذلك لم يمنع من إسهامهما.

---

[1]– أبو عبيد الله البكري، المسالك والممالك، سبق ذكره، ص:366.

[2]– البكري، المسالك والممالك، سبق ذكره، ص:233.

[3]– عبد الكريم غلاب، قراءة جديدة لتاريخ المغرب العربي، ج:1، ص:287.

آبير:

يعود تأسيس هذه المدينة إلى حدود 160 هجرية أي أنها كانت معاصرة لتأسيس أوداغست أو متأخرة عنها قليلا، وتبقى أطلال هذه المدينة في حدود 20كلم من مدينة شـــنقيط بولايـــة آدرار شمال موريتانيا حاليا، ويرجّح بعض المؤرخين فرضية تأسيس هذه المدينة أنه يعود لمجموعـــة من الخوارج الأباضيين حين حفروا بئرا في تلك الصحراء وأرادوها مدينة تقوم بنشر الإســـلام الأباضي[1].

وانطلاقا من هذه الفرضية يمكن أن نلمس خيطا واضحا من التفاعل بين هذه المدينة مع تلـــك التي أسسها ابن رستم[2] الأباضي ذات الصيت الكبير في نفس الفترة تقريبا بالجنوب الجزائري.

وهنا تمكننا العودة قليلا إلى تأييد هذه الفرضية بأن تلك الفترة بالذات أي سنة 160 هجريـــة كانت هي الفترة التي أسس فيها عبد الرحمن بن رستم عاصمته تاهرت بـــالمغرب الأوســـط (الجزائر حاليا) وقد اعتمد الخوارج الأباضيون خاصة على التجارة والتي من خلالها اســـتطاعوا نشر الإسلام واللغة العربية، إلا أن وجود صنهاجة وبكثرة في هذه الصحراء واعتناقهم للإسلام السني حد من انتشار المذهب الخاريجي، وقد تكون أسباب عدم استمرارية مدينـــة آبيـــر يعـــود للوجود الصنهاجي، فظلت هذه المدينة ذات طابع اقتصادي تجاري محـــدود، فألحقناهـــا منجيـــا بالجيل الأول نظرا لمعاصرتها لهم زمانيا وتقاسمها معهم الاهتمام السياسي والاقتصادي ثانيا[3].

ورغم أن الوجود الخاريجي قد داهمه قوة الحضور السني المالكي، وكانت الأسانيد القيروانيـــة حاضرة بقوة، مثل رسالة محمد عبد الله بن أبي زيد القيروان(310-386هـــ) الذي كان يلقـــب بمالك الصغير، وكان عليه عمدة تدريس الفقه المالكي والعقيدة الأشعرية.. ولهذا السبب فإن المد الخاريجي لم يستطع الصمود في وجه المنهج السني،و يحسب لحركة الخوارج إسهامها في نشر الإسلام واللغة العربية على مستوى معين، مكن السكان من التفاعل مع حركة القوافل القادمة من حواضر أهل السنة، ونجد مؤلف كتاب المساجلات الكلامية في بلاد شنقيط خلال القرن الثالـــث عشر هجري يحسم رأيه عن وجود مذهبي: الخوارج والشيعة بقوله:" فتأثير الفكـــر الشـــيعي أو

---

[1]– تربه عمار، سبق ذكره، ص:189.

[2]– هو عبد الرحمن بن رستم مؤسس دولة الخوارج الإباضية بشمال الجزائر سنة 160 هجرية، وكانت عاصمة سياسية وثقافية ازدهرت في المنطقة وكان لها دور حيوي في التجارة الصحراوية، تميز تجار الخوارج بالحضور في الحركة العلمية في الغرب الإسلامي؛ مما مكنهم من نشر الإسلام واللغة العربية، توفي ابن رسم سنة: توفي سنة171هـــ787م.

[3]– تربه عمار، القافلة والحاضرة، سبق ذكره.

الخارجي في الغرب الإسلامي لم يكن على الإطلاق بدرجة التأثير السني، إلا أن ثمة حيثيات متناثرة من واقع تاريخ المنطقة وحتى حاضرها المعيش تؤكد وجود تغلغل للمذهب الشيعي وتركز للمذهب الخارجي في المنطقة"[1].

ورغم ذلك نستطيع القول إن مدينة آزوكي بطابعها السياسي وصرامة قائدها العسكرية قد استطاعت أن تقض على الوجود العلني أو الممارس منهجيا لمذهبي: الخوارج والشيعة، حيث كانت خاتمة عقد الجيل الأول من المدن والحواضر، حين وضعت لبنة رسمية للمذهب السني، بقيت آثارها حية في الذاكرة العلمية للمجتمع الموريتاني.

آزوكي

يعود تأسيس هذه المدينة إلى دولة المرابطين في شقها الجنوبي، ونقصد هنا بالشق الجنوبي ذلك الجناح السياسي الذي قاده أبو بكر بن عمر(ت480هـ) بعد عوته من المغرب الأقصى (المملكة المغربية) بعدما تنازل لابن عمه يوسف بن تاشفين إثر انقلاب أبيض قام به هذا الأخير في قصة تناقلتها كتب التاريخ بشيء من التفاصيل لا نراه سلم من المبالغة، ولكن ما يهمنا هنا أن هذه المدينة التي تبعد 16كلم من مدينة أطار حاليا اتخذها الأمير اللمتوني عاصمة سياسية لدولته في بلاد شنقيط (موريتانيا) في الربع الأخير من القرن الهجري الخامس، وبما أن دولة المرابطين كانت في بداية أمرها حركة إصلاحية علمية فقد استجلب أبو بكر بن عمر معه جماعة من العلماء والقضاة.. لكن المدة القصيرة لهذا الجناح لم تهمل الأمير في تأسيس رؤية علمية ومنهجية، لذا جعلنا هذه المدينة خارج إطار المدن الثقافية نظرا لطابعها السياسي وألحقناها بالجيل الأول من المدن رغم أن الإمام الحضرمي المرادي (ت 489هـ) قاضي أزوكي شكل أرثه الثقافي دورا كبيرا في بنية الذهنية الثقافية والمنهجية لعلماء الشناقطة[2].

بعدما تم الحديث بشكل مقتضب عنما سميناه الجيل الأول من المدن ذات الطابع السياسي والاقتصادي، الذي اعتبرنا أنها أسهمت بشكل كبير في احتضان الحمولة المعرفية للروافد القادمة من حواضر الغرب الإسلامي، التي كان قوامها المذهب المالكي، ومنطلقها مدن القيروان وفاس ومراكش وغيرهم، ذلك المناخ الذي عرف قوة عطائه بعد ذلك بفترة، وكانت الفترة الزمنية التي

---

[1]– أحمد ولد السعد، المساجلات الكلامية في بلاد شنقيط خلال القرن الثالث عشر هجري، ط: مركز الدراسات الصحراوية، دار أبي رقراق، الرباط، 2015، ص:44.

[2]– تربه بنت عمار، الحركة الفقهية والمذهبية، سيق ذكره، ص:187.

عقبت فترة المدن السياسية قد عرفت تشكل وظهور مدن خالصة العطاء لحمولة القوافل من الكتب والأسانيد الفقهية[1].

وانطلاقا من هذا بدأت فترة التأسيس المنهجي تظهر للعيان، وهنا سيتم الحديث عن تلك المدن حسب الأسبقية الزمنية.

وكان لسقوط مدينة مراكش نهاية النصف الأول من القرن الهجري السادس بالغ الأثر على ظهور حواضر تيشيت وودان اللتان أسسهما تلامذة القاضي عياض(ت544هـ)الذي قتله الموحدون بعد دخولهم لمدينة مراكش، والقضاء النهائي على المرابطين، كما أسهم ذلك في انتقال النسخة المالكية النصانية التي كانت عند فقهاء دولة المرابطين إلى مدينة تمبكتو بالغرب السوداني، وسيكون لهذه المدينة تأثير مباشر بالجيل الثاني من الحواضر، حيث كانت مدينة ولاتة المحطة الأولى زمانيا ومكانيا لرافدها.

المحور الثالث: نشأة وتطور الجيل الثاني من الحواضر

نتحدث من خلال هذا المحور الثالث والأخير عن محطة هامة من التاريخ الثقافي لبلاد شنقيط (موريتانيا) حين استقبلت هذه النسخة من المدن والتي كانت الأخيرة بسبب تبدل النسق الاقتصادي، نظرا للتحول الذي عرفه مجتمع الغرب الإسلامي، حين تراجع دور القوافل البرية فاسحاً المجال للتجارة البحرية الأوروبية، النصف الثاني من التاريخ الحديث، وضعف السلط الإسلامية التي كانت تؤمن الطرق البرية، وبعد هذه الفترة مباشرة ستعرف البلاد بروز الإمارات الحسانية بحر القرن الحادي عشر هجري السابع عشر ميلادي، وتكتظ البوادي بالسكان وتنتشر المحظرة كنسق معرفي وحيد وجديد..

نحن في هذه الورقة سيختصر حديثنا على الصلات العلمية بين مدن وحواضر الغرب الإسلامي وبلاد شنقيط، وبما أن الفكرة الأساسية لهذا البحث هي إبراز التفاعل بين هذه المدن ودور حواضر شنقيط في ذلك التفاعل، حين أدى استقبال المدن الموريتانية واحتفاؤها بحمولة القوافل العابرة للصحراء من زاد معرفي كانت نتائجه بروز نخب علمية وأدبية طورت وأنتجت واحتفت بها هي نفسها عواصم في الغرب الإسلامي في هجرة عكسية قامت بها نخب هذه البلاد عبر قرون نقدرها حاليا بثلاثة قرون، حين كان علماء هذه البلاد يهاجرون لطلب العلم ولأداء فريضة الحج، وللتجارة والسياحة العلمية والروحية، وبعد ذلك كانوا يهاجرون جهادا في وجه المستعمر الفرنسي.

---

[1]– تربه عمار، القافلة والحاضرة، سبق ذكره.

وانطلاقا من ذلك فإن حدود هذا البحث ستجعل هذا الجيل الذي سميناه بالجيل الثاني من المدن هو محطتنا الأخيرة، حين نناقش طبيعة تعاطي هذه الحواضر مع نظيراتها وكيف اكتمل المنهج العلمي، وذلك ما سيتضح من خلال هذه المدن التي كانت مدينة ولاتة الأولى بالحديث عنها احتراما للترتيب الزمني.

ولاتـــــــــة

ولاتة هي مدينة صحراوية من أقدم الحواضر التي احتضنت المتون الفقهية وأسانيد القراءات القرآنية والأوراد الصوفية، إضافة إلى هذا ظلت ولاتة المدينة الصحراوية التي علت مكانتها العلمية، ويرجع بعض المؤرخين تاريخ نشأتها إلى القرن الميلادي الأول حيث كانت تعرف ب"بيرو" وتميزت هذه المدينة بقوة روابطها بالمحور الشرقي التابع للإقليم السوداني وكانت جزءا من الإمبراطورية الإسلامية المالية[1].

ورغم ذلك كان الحضور العربي بارزا فيها وقد زارها الرحالة المغربي ابن بطوطة في القرن الرابع عشر ميلادي و في حدود 726 هجري، وتحدث عن الازدهار الشديد الذي كانت تعرفه المدينة بحكم موقعها الاستراتيجي كنقطة وصل بين الأقاليم الأفريقية في الجنوب وبين الدولة الإسلامية في الشمال حيث وصف رخاء معيشة أهلها بقوله : "ويجلب إليهم تمر درعة، وسجلماسة، وتأتيهم القوافل من بلاد السودان فيحملون الملح ويباع الحمل منه إيولاتن بثمانية مثاقيل إلى عشرة ويباع في مدينة مالي بعشرين مثقالا وربما يصل إلى أربعين مثقالا وبالملح يتصارفون كما يتصارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعا ويتبايعون به"[2].

وانطلاقا من هذا كانت ولاتة هي الملاذ الآمن للعلماء الذين فروا من تنبكتو؛ فكان ذلك سببا في ازدهار المدينة ثقافيا وفكريا.." ومنذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي عرفت مدينة ولاته بداية نهضة فكرية كبيرة، وأصبحت أحد أهم مراكز الإشعاع الثقافي العربي الإسلامي، وهاجر إليها عدد كبير من علماء مدينة تمبكتو التي عرفت اجتياحا وانهيارا كان سببا في هجرة علمائها نحو ولاتة ووادان وغيرهما من المدن التي كانت صغيرة وهامشية مقارنة بتمبكتو، وفي نفس الظروف هاجر إليها علماء ومفكرون من فاس وتلمسان ومراكش، كما استقر بها بعض أهالي توات بجنوب الجزائر، وبعض العائدين من الأندلس التي سقطت نهائيا بيد الأسبان عام 1492. هذا الكم المتنوع من المهاجرين رفد المدينة بمصادرها الثقافية التي بقيت حتى الآن وسمح لها

---

[1]– تربه عمار، مقال: القافلة والحاضرة، سبق ذكره.

[2]– ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ط: دار الشرق العربي، ج: الثاني، ص: 658.

في نفس الوقت بأن تتحول خلال القرون الخمسة الماضية إلى منارة ثقافية وعلمية، وعاصمة من عواصم الفقه المالكي، كما نجد هذه الروافد المختلفة ماثلة في العمارة الولاتية، وفي عادات سكان المدينة المتحضرة وسط عالم صحراء بدوي، مخالفاً للعادات الحضرية التي استقدمها الوافدون معهم من فاس وتلمسان وغرناطة وغيرها من الحواضر العربية العريقة في العمران والمدنية"[1].

تفرعت عن مدينة ولاتة مدارس مهمة خرجت أجيالا من العلماء والصلحاء مثل مدرسة أهل سيدي عثمان والتي خرج منها محمد يحيى الولاتي ومحمد يحيى بن سليمة[2].

وتعتبر مدينة تشيت توأمة مدينة ولاتة في الزمان والمكان.

2 – تيشيـــــت:

يعود تأسيس مدينة تيشيت لنفس الفترة تقريبا أو قبلها بقليل التي سقطت فيها دولة المرابطين ونفترض أن مؤسس المدينة الشريف عبد المؤمن بن صالح الذي ذكرت جملة من المصادر التي تناولت تأسيس المدينة أنه كان تلميذا للقاضي عياض قد ارتحل في ظل تنامي دعوة ابن تومرت وظهور بوادر سقوط الدولة، ويظل هذا مجرد افتراض تنقصه المصادر لتعزيزه. وكان أول عمل قام به مؤسس المدينة–فيما تذكره مصادر التأسيس– هو بناء مسجد بمنارة عالية.

وذكر النحوي أن تأسيس هذه المدينة كان سنة 536 هجرية. وتتدخل أسطورة التأسيس لتجعل سبب اختيار الشريف عبد المؤمن لهذا المكان لما كشف له من بركة فيه، ومن ذلك الوقت صارت هذه المدينة التي ظلت بعيدة عن اهتمام الكتاب ولم يرد لها ذكر رغم أنها كانت تقع على محور مدينة ولاتة الذائعة الصيت"فهي كانت إحدى مدن الواحات القديمة، ومحطات القوافل، كانت تمر بها طريق قلم– ولاتة– تنبكتو– توات فزان– الإسكندرية– وغيرها"[3].

وقد لا يهمنا كثيرا ظروف نشأة هذه المدن بقدر ما يهمنا طبيعة تفاعلها مع الروافد القادمة من مدن الغرب الإسلامي، والتي شكلت قاعدة صلبة لم تستطع التيارات والمذاهب الأخرى اختراعها، وكانت مدينة وادان ثالث مدينة زمانيا حلت في الجيل الثاني من حواضر بلاد شنقيط(موريتانيا) وكان لها حضورها العلمي.

---

[1] تربه عمار، مقال: القافلة والحاضرة، سبق ذكره.

[2] الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، ط: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس:1987، ص:69

[3] الخليل النحوي، سبق ذكره، ص: 70..

3- وادان

يعود تأسيس هذه المدينة إلى سقوط مدينة مراكش وخروج تلامذة القاضي عياض من سيطرة الموحدين، بحثا عن فضاء السني مالكي نصاني على منهج شيوخ المذهب، فكانت ودان مثل تيشيت تماما، حيث تأسست في نفس السنة التي تأسست فيها تيشيت بل إن أحد الثلاثة الذين أسسوها كان زميلا للشريف عبد المؤمن بن صالح مؤسس تيشيت وتلميذا للقاضي عياض أيضا، وهو الحاج عثمان الأنصاري وتنسج الذاكرة الشعبية قصتها المستوحاة من تكامل العناصر الأساسية في المجال الجغرافي لنجد ثلاثة التأسيس جمعوا بين صنهاجة وقريش والأنصار ليكتمل التعايش بتطهيرهم بحج بيت الله الحرام الذي عادوا منه بمشروع تأسيس المدينة ليكون بناء أسس على التقوى، وهم: الحاج عثمان الأنصاري تلميذ القاضي عياض والحاج يعقوب القرشي والحاج علي الصنهاجي ليلتحق بهم بعد التأسيس عبد الرحمن الصائم واكتفت بإطلاق صفة الصوم على صاحبها تطهيرا له وتزكية[1].

ومنذ تأسيس هذه المدينة وهي مرتبطة بالعلم والعطاء وقد أهلها موقعها الاستراتيجي بامتلاكها لسبخة ملح يوم كان الملح بضاعة رائجة فكانت القوافل تقصد المدينة وتربطها مع حواضر كبرى مثل درعة وسجلماسة من الشمال وتمبكتو من الجنوب وترتبط من ناحية أخرى بتوات وتغازة فكانت تصدر إلى الشمال المواشي وجلد النعام وإلى الجنوب الملح والتمر والأقمشة.. هكذا استفادت وادان من موقعها التجاري لتضطلع بوظيفة مزدوجة خدمة للعلم والتأليف ونشر الفقه[2].

خرج من مدينة وادان علماء أجلاء منهم ولد اطوير الجنة(ت1265هـ) وسيدي عبد الله (ولد رازكه) (ت 1144هـ) والطالب محمد ولد بلعمش (1107هـ) ومن الجيل الأول من العلماء كان محمد بن أحمد بن بوبكر(توفي بعد 933هـ) مؤلف كتاب "موهوب الجليل في شرح خليل" ويتميز هذا الكتاب بأنه أول تأليف في بلاد شنقيط. خصصه مؤلفه لشرح مختصر خليل[3].

ويعتبر فقه ابن القاسم تلميذ مالك قد حظي بالقبول والانتشار عند سكان هذا القطر، وتعود عليه عمد التدريس والتأليف والشرح..

---

[1]- تربه بنت عمار، الحركة الفقهية والمذهبية في الغرب الإسلامي، سبق ذكره. ص:257.

[2] تربه عمار، الحركة الفقهية والمذهبية في الغرب الإسلامي، سبق ذكره، ص:277

[3]- الخليل النحوي، سبق ذكره، ص:71.

4- شنقيـــــــط

لا نتوقف هنا كثيرا في حديثنا عن مدينة الشنقيط، تلك المدينة التي تسمى بها القطـــر كله في دلالة على قيمتها الثقافية، وحضورها العلمي.. ورغم ذلك الرصيد الرمزي الذي حظيت به إلا أن عنايتنا هنا في هذا المقام ترتكز على دورها في التفاعل مـــع محيطهـــا الجغرافـــي، وروافدها التجارية، التي شكلت المدينة محطة حيوية، استقبلت العلماء والدعاة وغيرهم، حتـــى نسجت الأساطير عن شخصيات قادمة من مدن مثل فاس يحملون معهم علما غزيرا، أخذه عنهم بعض الشخصيات العلمية ذات الـــتأثير القوي في ميزان الساحة الفقهية والعقدية.. مثل الطالـــب محمد بن المختار بن الأعمش العلوي قاضي شنقيط (ت1102هـــــ)الذي شرح إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة لأحمد المقري التلمساني، وقربها لطلبة العلم وجعلها منهجا ثابتا في التـــدريس المحظري، مسعى منه لإدخال العقيدة الأشعرية بشكل فعلي، وذلك عندما بدأت مدينـــة تلمســـان ترفد شنقيط بإنتاج كبار علماء الأشعرية في الغرب الإسلامي، حيث كان ابن الأعمش من أكثـــر علماء القطر آنذاك تهيئة لتولي ذلك الدور العلمي الكبير، والذي كان له صدى كبيرا استطاع أن يحارب أهل البدع ويساجل أصحاب المشاريع السياسية ذات النفس المهدوي![1]

وذكر الخليل النحوي في سياق حديثه عن أول ظهور لاسم هذه المدينة في الكتابات مع السعدي: "ورد ذكر شنقيط موثقا لأول مرة في تاريخ السودان للسعدي، ونجد النسبة إليها في شجرة النور الزكية عند ذكر محمد الشنقيطي الآخذ عن زروق. وذكرها شارح القاموس في المستدرك.."[2].

وحسبنا من قيمة التداول التي حظيت بها مدينة شنقيط في المراسلات أنها كانت مستوى مـــن التفاعل في السياق الثقافي والمعرفي أتت نتائجه على القطر كله.

هكذا تميز هذا الجيل من حواضر بلاد شنقيط (موريتانيا) بأنه تفاعل بشكل مباشر وباستمرار مع عدة مدن مثل: القيروان، وفاس، ومراكش، تمبكتو، تلمسان، توات، وأخيرا عاصمة الدولـــة العلوية (مكناس)حينما ظهرت هذه الأخيرة بعدما اكتمل النضج المعرفي، بســـبب تمكـــن الفقـــه المالكي والعقيدة الأشعرية والتصوف السني، وبدأ علماء الشناقطة يتولون التـــأليف فـــألف ابـــن الأعمش في العقيدة وكذلك في النوازل الفقهية، وكذلك ابن بونه الجكني (ت1220هـــــ)فـــي العقيدة الأشعرية، وأدخل سيدي المختار الكنتي(1142-1727- 1226هـــــ-1811م) التصـــوف

---

[1]- أحمد ولد السعد، المساجلات الكلامية في بلاد شنقيط خلال القرن الثالث عشر هجري، ط: مركز الدراسات الصحراوية، دار أبي رقراق، الرباط، 2015، ص:73.

[2]- الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، سبق ذكره، ص:72

القادري على طريقة الجنيد السالك(ت297هـــــــ)وبعد انتصار علماء الأشعرية بقيادة ابن بونـــه على علماء السلفية بقيادة محمذن بن حبلل المعروف ب"لمجيدري" (1160-1204هـــــــ) حيـــث كان لذلك السجال العلمي دوره في فك الحصار عن الشعر وبروز نخبة من العلمـــاء شـــعراء، حيث ارتبط الشعر في تلك الفترة بالفقه دفاعا وشرحا وتقريبا..[1]

هنا وفي لحظة مضيئة من تاريخنا الثقافي بعدما قدمت هذه المدن مجتمعة عبر رحلة كانت بطيئة لكنها كانت عميقة عصارة المنهج العلمي لأهل السنة، دخلت بلادنـــا عصـــرها الـــذهبي وتطورت مناهجها، فجاء التفاعل إعجابا وإشادة من طرف أمراء الدولة العلويـــة الإســـماعيلية بمكناس احتفاء، جاء ذلك في قول الأمير العلوي محمد العالم بن مولاي إسماعيل (ت1706م):

أتانا من قرى شنقيط شعر@ تعالى فوق سحر الساحرينا

يقصر شعرنا عنه لو أنا @ بعثنا في المدائن حاشرينـــــــا.

والشعر هنا المقصود به العلم والشعر حيث كان الشعر توأما، حين كانت المحظرة تفرض منهج قراءة القرآن والفقه واللغة العربية والشعر..

هكذا استطاعت هذه المدن التي اخترنا منها نماذج ذات حضور حيوي في التأثير ونقل العلـــوم والمعارف إلى مدن بلاد شنقيط،حيث تمكنت تلك الحركة من خلق حركة موازية هنا في الـــبلاد كانت وراء تأسيس هوية دينية وثقافية صارمة وثابتة، لم يستطع المستعمر الغربي الذي وصلت طلائعه عبر شواطئ المحيط الأطلسي،ومن خلال أطماعه التجارية التي عرفتها البلاد منذ القرن العاشر هجري السادس عشر ميلادي، فإن ذلك الإرث الذي تركته المدن وتلك النبة كانت بمثابة صمام أمان للمجتمع الموريتاني.

خاتمة:

ونستنتج مما سبق وبعد جولة في رحاب عدة مدن عرفتها البلاد في فترة تأسيسية اســـتطاعت هذه المدن عبر أجيالها المختلفة أن تكون الوعاء الصادق الذي احتضن وطور علـــوم الشـــريعة الإسلامية، وعلوم الآلة، وكان تعاطيه مع الروافد القادمة من القيروان وفاس وتمبكتو ومـــراكش وتلمسان وتوات تفاعلا واعيا، تولت النخب العلمية والقادة السياسيون ترتيـــب وتنســـيق حاجـــة المجتمع لتلك العلوم والأسانيد، حيث كان المجتمع في بداية أمره في مرحلة الجيل الأول: كومبي صالح وأداغست يحتاج للفقه والفتوى لفك النزاعات وتسجيل الديون والعبادات وحـــل القضـــايا

[1]– أحمد ولد السعد، المساجلات الكلامية، سيق ذكره، ص:167.

الاجتماعية كالزواج والطلاق والخلع والنفقة.. فكان المذهب المالكي بنسخته القيروانية الغير معقّدة خير وافد يحتاجه المجتمع حديث العهد بالوثنية.

وفي الجيل الذي تبع الجيل الأول حيث مثلت مدينة أزوكي بصفتها عاصمة سياسية تلك المرحلة حين بدأ طموح مؤسسها يرتفع نحو رفد المنهج العلمي بالعقيدة الأشعرية؛ حين اصطحب الأمير ابن عمر معه في عودته الإمام الجليل ضليع في علم الأشعرية الإمام الحضرمي، ورغم أن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح ولا الاستمرار إلا أنها احتفظت لها الذاكرة بالتبجيل والتقدير؛ مما كان له بالغ الأثر في التكوين العلمي لدى الجيل الأخير من المدن.

وتأتي المدن الأربع: ولاتة وتيشيت وودان وشنقيط كخاتمة العقد حين تطورت العلوم واكتمل نهجها وعطاؤها..

ومن أهم تلك النتائج ازدهار المرحلة الموالية التي تلت مرحلة الجيل الأخير من المدن، وهي مرحلة المحظرة والتي بموجبها تميزت البادية الشنقيطية بأنها استثناء من بين بوادي العالم بمستواها المعرفي الكبير، فحينما تراجع دور الحواضر بسبب تحول التجارة من صحراوية إلى شاطئية انعكس ذلك على أداء المدن بسبب الأزمة الاقتصادية عندما تحول المورد الاقتصادي الذي كان شريان الحياة في تلك الحواضر، ومن ذلك جاء نتيجة لتلك الثنائية متمثلة في ازدهار المحظرة التي أنتج منها العلماء الفقه والعقيدة والتصوف.

قائمة المصادر

1-الناني بن الحسين، صحراء الملثمين، وعلاقاتها بشمال وغرب إفريقيا، من منتصف القرن:2 هـ8م إلى نهاية القرن 5هـ 11م. بدون تاريخ نشر ولا ذكر للمطبعة.

2- أبو عبيد عبد الله البكري، المسالك والممالك، ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996.

3- تربه بنت عمار، الحركة الفقهية والمذهبية في الغرب الإسلامي، من القرن:2هـ/ 8م حتى 13هـ/19م (قراءة جديدة لسيطرة المالكية وإسهام الشناقطة في طورها الأخير) ط: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، الطبعة الأولى، 2025.

4-عبد الكريم غلاب، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، ج 1،ط : دار الغرب الإسلامي، بيروت،2005.

5- أحمد ولد السعد، المساجلات الكلامية في بلاد شنقيط خلال القرن الثالث عشر هجري، ط: مركز الدراسات الصحراوية، دار أبي رقراق، الرباط، 2015

6- ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار،ج : الثاني، ط : دار الشرق العربي.

7- الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، ط: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تـــونس، 1987.